أ.د. جوزيف نسيم يوسف

(١٩٢٥ -١٩٩٣م)

مؤرخًا للحروب الصليبية

إعــداد

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعتى عين شمس والشارقة

جوزيف نسيم يوسف

(١٩٢٥ -١٩٩٣)

مؤرخاً للحروب الصليبية

يتناول هذا البحث بالدراسة إسهام المؤرخ المصرى البارز الراحل / جوزيف نسيم يوسف [١] فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية، من أجل تسليط الأضواء الكاشفة على دورة فى الكتابة التاريخية المصرية والعربية الحديثة عن تلك المرحلة الفارقة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى.

لقد وُلد مؤرخنا فى الإسكندرية فى يوم ٩ مارس عام ١٩٢٥ (٦) سنوات فقط من إندلاع ثورتها الخالدة ضد المستعمر البريطانى، فهو بالتالى يُعد إبناً من أبنائها وتدرج فى مراحل التعليم إلى أن حصل على الليسانس من قسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية ثم الماجستير والدكتوراة وكان أستاذه عزيز سوريال عطية أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية.

وقد تدرج جوزيف نسيم يوسف فى السلك الجامعى إلى أن صار أستاذا لتاريخ العصور الوسطى بالجامعة المذكورة وأشرف على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراة خاصة فى مجال تاريخ الحروب الصليبية، خاصة عن مدن ومواقع فى بلاد الشام مثل قيسارية و جبيل وحصن الأكراد وغيرها.

قدم مؤرخنا العديد من المؤلفات القيمة للمكتبة العربية يمكن إجمالها على النحو التالى:

أولا – الكتب:

- لويس التاسع فى الشرق الأوسط قضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية، ط القاهرة ١٩٥٩م

- هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ط القاهرة ١٩٦٠م
- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ط الإسكندرية ١٩٦٧م
- الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى، ط الإسكندرية ١٩٦٧م
- العدوان الصليبى على بلاد الشام، ط الإسكندرية ١٩٧١م
- دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط الإسكندرية ١٩٨٣م
- تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، ط الإسكندرية
- دراسات فى تاريخ العصور الوسطى ط الإسكندرية ١٩٨٨م
- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط الإسكندرية ب – ت
- فى تاريخ الحركة الصليبية، ط الإسكندرية ١٩٨٩م
- ورثة الإمبراطورية الرومانية (الغرب الرومانى العالم الإسلامى – الدول البيزنطية)، ط الإسكندرية ٢٠٠٢م

ثانياً – البحوث والمقالات :

- "الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية "، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، العدد (١٦) عام ١٩٦٣م
- "دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء"، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية العدد (١٨) عام ١٩٦٥م
- "العدوان الغربى الإستعمارى على العالم العربى قديماً وحديثاً"– قاسم مشترك أعظم، مجلة العهد الجديد، العدد (١١٥٤) عام ١٩٦٧

- "الصهيونية فى فلسطين إمتداد طبيعى للإستعمار الصليبى" مجلة العهد الجديد، العدد (١١٤٥) مايو ١٩٦٧
- "العدوان الصليبى والرأى العام الغربى "، المحاضرات العامة لجامعة الإسكندرية العالم الجامعى ١٩٦٨/١٩٦٧م
- "دراسات فى المحفوظات العربية بدير القديسة كاترينا فى سيناء"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد (٢٢) عام ١٩٦٩م
- "بستان الرهبان عرض وتحليل لنسخة الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة "بمكتبة دير سيناء" – مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية العدد (٢٣) عام ١٩٧١م.
- "علاقات مصر بالممالك التجارية والإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى" ضمن كتاب أبو العباس القلقشندى وكتابه صحيح الأعشى. ط، القاهرة ١٩٧٣م
- "الفردوس العقلى عرض مقارن لنسخة الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بدير سيناء " مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية العدد (٢٤) ١٩٧٣م
- "مجتمع الإسكندرية فى العصر المسيحى (حوالى ٤٨-٦٤٣م)"، ضمن كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٥م
- "سيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى، " المؤرخ العربى العدد (٤) بغداد ١٩٧٧م
- "نهاية العصور الأوربية والنظريات التى قامت حولها "، المؤرخ العربى ن العدد (٦) بغداد ١٩٧٨م
- "العصور الوسطى الأوربية حدودها الزمنية والنظريات التى قامت حول بدايتها" دراسات أثرية، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية العدد (٦) عام ١٩٧٩م

- "أنشودة رولان قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش، " ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط جامعة عين شمس م (١) عام ١٩٨٢م
- "معركة حطين خلقياتها ودلالاتها"، عالم الفكر م (٢٠) العدد الأول – إبريل – مايو – يونية – الكويت ١٩٨٩م

ثالثاً – الترجمة:

أولاً – الكتب:

- كولتون، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ط الإسكندرية ١٩٦٤م
- هارتمان وباراكلاف، الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، ط الإسكندرية ١٩٦٦م

ثانياً – المقالات:

- عزيز سوريال عطية، أحد مصنفى الموسوعات السكندريين فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى)، دراسة نقدية تحليلية لكتاب الإلمام للنويرى السكندرى، ضمن كتاب تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط الإسكندرية ١٩٨٣م
- ياروسلاف سيزار– وجوزيف فوزار، نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠–١٥)، عالم الفكر، م (١٠) العدد الأول، إبريل مايو – يونيو ١٩٧٩م

أما عن إسهامه فى مجال تاريخ الحروب الصليبية فيمكن إدراكه من خلال عرضنا التالى :

نجد مؤرخنا الرائد يعرفها قائلاً : "لقد قامت الحركة الصليبية نتيجة لعدة عوامل متشابكة معقدة متداخلة فى بعضها، منها الرئيس والثانوى، ومنها المباشر وغير المباشر ومنها الخفى والظاهرى ومن أهم هذه العوامل نظرة الغرب إلى الشرق منذ أقدم العصور بإعتباره مهبط الوحى والأديان ومهد العلم والمعرفة ومركز الحضارة والإشعاع الثقافى. وكذلك فقط حركة الحج إلى الأراضى المقدسة عبر القرون الطويلة ونمو فكرة الحروب المسيحية المقدسة ضد العرب فى الغرب الأوروبى منذ القرن التاسع الميلادى حتى قيام الحركة الصليبية فى ختام القرن الحادى عشر.

هذا بالإضافة إلى الأحوال السياسية السائدة فى الغرب اللاتينى، ودولة الروم والعالم العربى وقتذاك. كل هذه العوامل متكاتفة أسهمت فى التمهيد للحروب الصليبية وتهيئة الجو والأذهان لقبولها، تحقيقاً لأغراض وأطماع بعيدة الغور فى سير مجرى التاريخ"(١).

فى تقديرى الشخصى ومن خلال دراستى للحروب الصليبية وتاريخها، أرى أن هذا المؤرخ الرائد " يفلسف" تلك الحركة ويبحث فى أعماق التاريخ عن جذورها الأولى، على نحو يجعلنا نرى أنه كان بنيويا فى فهمها و إذا أدركنا أنه كتب هذه السطور فى مرحلة باكرة حيث وردت فى بحثه بعنوان : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية، الذى نشره بمجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، العدد (١٦) عام ١٩٦٣م. إذا تأملنا تاريخ نشرها ندرك من فورنا أننا أمام ليس مجرد مؤرخ لأحداث تلك الحروب بل "فيلسوف" حقيقى لتاريخها وباحث عن جذورها التاريخية لدى كل من الشرق والغرب، وألفت نظر القارىء إلى عبارته ".... تحقيقاً لاغراض وأطماع بعيدة الغور فى سير مجرى التاريخ " لما فيها من تحليل وعرض وبحث عن الأصول التاريخية.

إضافة إلى ذلك، نجد هذا المؤرخ الرائد يشير إلى أهمية الحروب الصليبية، إذ ذكر فى مقدمة الطبعة الأولى من كتابة العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية

الأولى ما نصه : "تعتبر الحركة الصليبية من الحركات العالمية الخطيرة التى عُنى بها الكتاب والمؤرخون فى الشرق والغرب عناية لم تنلها حركة أخرى حتى وقتنا هذا.

ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى ما لها من طابع خاص وأهمية بالغة فى تطور سير الأحداث، وفى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فضلا عن ارتباطها الوثيق بحركة التوسع والإستعمار فى العصر الحديث"(٣).

هكذا يقرر أهمية ومحورية تلك الحروب فى تاريخ العلاقات الدولية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وكذلك ارتباطها القوى بحركة الإستعمار الأوروبى للعالم العربى والإسلامى فى العصر الحديث مما دل على التلازم الوثيق بين أحداث العصور الوسطى وما تلاها.

واقع الأمر، يذكر تاريخ الكتابة التاريخية العربية الحديثة عن عصر الحروب الصليبية لمؤرخنا تخصيصه لدراسة رائدة عن الحرب الصليبية الأولى وهى التى جاءت بعنوان: العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى وقد صدرت فى عام ١٩٦٣م ومن الواضح تماما أنها كانت سابقة على دراسة مؤرخنا الرائد أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان : الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى بدليل عدم استعانة جوزيف نسيم يوسف بالكتاب الموسوعى المذكور فى قائمة الببليوغرافية، وقد يقول قائل أن هناك اختلافاً بين العملين إذا أن ابن جامعة القاهرة، خصص دراسته للحركة الصليبية بوجه عام فى مجلدين ضخمين، بينما خصص ابن جامعة الإسكندرية عمله للحملة الصليبية فقط وهو أمر منطقى تماماً، لكن علينا إدراك قيمة عمل جوزيف نسيم يوسف من خلال التالى :

أولاً : صدوره مبكراً عام ١٩٦٣م فى وقت لم تكن هناك فيه أية دراسة أكاديمية باللغة العربية عن الحملة الصليبية الأولى إلا تلك التى قدمها أستاذنا الراحل أ. حسن

حبشى [١]، وقد صدرت عام ١٩٥٨م ومع تقديرى التام لها إلا أن دراسة جوزيف نسيم يوسف جاءت أعمق وأشمل بصورة تجعلنا نقر بزيادته فى دراسة تلك الحملة التى نجحت فى تكوين الإمارات الصليبية على أرض المسلمين فى ذلك العصر.

ثانياً : زود مؤرخنا كتابه بدراسة نقدية للمصادر التاريخية العربية واليونانية والاتينية[٥]، ويُعد رائداً فى هذا الأمر، فلأول مرة باللغة العربية نجد تعريفا ونقداً لمصادر دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى على نحو ألقى الأضواء الكاشفة على أولئك المؤرخين الذين أرخو لها من المعاصرين والمتأخرين وبصورة أفادت الباحثين الذين أتوا من بعد ذلك وأرسلوا عصر الصليبيات وبالتالى وضع الأساس للدراسات المصدرية فى مقدمة أطروحات الماجستير والدكتوراة.

وقد اتضح لنا من خلال ذلك العرض النقدى للمصادر مدى اتساع قراءته ووقته ورؤيته المتعمقة فى نصوصها من خلال خبرة علمية واسعة

ثالثاً : إمناز الكتاب المذكور بغزارة التفاصيل فلم يغادر شاردة أو واردة فى أحداثها الرئيسية إلا وتناولها، مما دل على الصبر والجلد والرغبة الصادقة فى البحث عن أصول ومراحل تطور تلك الحملة والآن ونحن فى عام ٢٠١٥ نجد أن ذلك الكتاب الذى صدر عام ١٩٦٣ أى منذ (٥٢) عاما لا يزال يحتفظ بأهميته العلمية بصور تدعو للتأمل بعمق فى إسهام ذلك المؤرخ السكندرى الرائد الذى من المرجح أنه ما أصدر كتابه المذكور إلا بعد أن أنفق أعواما فى دراسته

رابعاً : زود مؤرخنا كتابه بعدد (٧) ملاحق إحتوت على نصوص مصدرية غربية على جانب كبير من الأهمية فى صورة ما ذكرته أنا كومينا Anna Commena وفوشيه الشارترى Fulcher Chartres ومؤرخ الجستا Gesta

(١) راجع د. حسام الأهوانى (قانون العمل الجديد، سنة ٢٠٠٩، ص ١٧٨

المجهول وكذلك مقتطفات مما أورده الشاعر الفرنسى وليم رتبيف Rutebeuf ومتى الباريس Matthew of Paris وتعد ترجمته لتلك المقتطفات للمرة الأولى باللغة العربية مما دل على ريادته.

وفى معرض تناولنا لإسهام مؤرخنا الرائد فى مجال دراسة تاريخ الحروب الصليبية، نلاحظ إدراكه لأحد أبرز مشاكل تلك الدراسة فى صورة تباين رؤية مؤرخى الغرب عن المؤرخين العرب المحدثين وفى ذلك قرر ما نصه "مما يؤسف له أن معظم من كتب عن الحروب الصليبية من أهل الغرب، إنما يعبرون عن وجهة نظر غربية، وعلى هذا جاءت كثير من آرائهم بعيدة عن الحقيقة ويبدو فيها تحيزهم الصريح لبنى جنسهم الذى يبلغ أحياناً حد التعصب والشطط.

ويظهر هذا بوضوح فى كتابات مؤرخين أمثال رينيه جروسب، ودانيال روبس، ورهرشت. وعلى هذا أصبح من واجب الباحث المنصف المدقق، تناول مختلف الروايات بالحيطة والحذر وتحرى الحقيقية البحتة أو محاولة الكشف عنها" (٦).

هكذا يقدم لنا مؤرخنا الرائد تناولاً يعكس إدراكه لحجم المشكلة، ورغبته فى أن تكون لنا هويتنا الخاصة ورؤيتنا المعبرة عنها بحيث لا نكون مجرد مرددين لما يكتبه أهل الغرب عن تاريخنا فى العصور الوسطى وكأنه يريد القول علينا ألا نتأورب أو نتأمرك بل نكون أنفسنا وهذا يكفى !!

من جهة أخرى، حرص مؤرخنا الرائد على أن يصحح بعض الأخطار الشائعة عن الحملة الصليبية والأولى خاصة ما أتصل بدور بطرس الناسك Peter the Hermit (٧) الذى تصور البعض من قبل أنه كان المحرك الرئيسى للحروب الصليبية وهكذا، وجدناه يقرر ما نصه "أن شخصية بطرس الناسك يحوطها كثير من اللبس والغموض. وتؤكد هذه الفكرة أن البحوث التاريخية الأخيرة فى هذا الموضوع أثبتت أن الواعظ الذين قاموا بدور بطرس الناسك فى التبشير بالحروب الصليبية والدعاية لها، إنما كانوا يعدون بالمئات والآلاف وأذن علم يكن هناك بطرس ناسك

واحد معين، بل لقد أتصفت هذه الشخصيات المتعددة كلها باسم بطرس الناسك. ولذا فإن هذا الذى نتحدث عنه، هو أحد أولئك الذين ساهموا بنصيب فى هذه الحركة.

وحقيقة الأمر أن الدور المنسوب إلى هذا الناسك ظهر فى أواسط القرن الثانى عشر، أى بعد قيام البلد الصليبية الأولى بحوالى نصف قرن، وخاصة عند المؤرخ اللاتينى ألبرت داكسي وعنه أخذ وليم الصورى رئيس أساقفة صور. ولا يوجد تحت أيدينا ما يؤيد هذا الرأى سواء فى الوثائق الرسمية أو فى حوليات المؤرخين المعاصرين الذين شاهدوا مولد الحركة. وكانت آن كومتين هى الكاتبة الوحيدة المعاصرة للحرب الصليبية الأولى التى نسبت صراحة أمر قيامها إلى بطرس الناسك. ويجب أن نتقبل رأيها بشىء من التحفظ إذ أنها هى الأخرى قد وضعت كتابها عن تاريخ حياة أبيها قبيل منتصف القرن الثانى عشر بقليل، وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها عندما نزلت الجيوش الصليبية فى عاصمة الدولة البيزنطية [٨].

وأختتم حديثه فى هذه الزاوية قائلاً "قد تناول المؤرخ هاجنماير شخصية بطرس الناسك والدور الذى قام به بالدراسة والتحليل. ووضع الأمور فى نصابها بعد أن كشف عن الناحية الخيالية والناحية الواقعية فى حياة هذا الراهب، كما حطم الأسطورة القائلة بأن بطرس هو الذى حث البابا أوربان على القيام بالمشروع الصليبى مبيناً أنه لم يقم بأى دور فى هذا السبيل[٩].

هكذا أمتلك مؤرخنا القدرة على التحليل والنقد وعدم الأخذ بما هو شائع من آراء تقليدية بل حللها وسير أغوارها وصولاً إلى الحقيقة التاريخية.

عن جهة أخرى، إهتم بدور البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٩-١٠٩٩) وخطبته فى مجمع كليرمونت بفرنسا فى ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥، وقد أشار إلى أهمية تلك الخطبة ووصفها قائلاً : " لقد تركت الخطبة الملتهبة أثراً بالغاً فى نفوس المستمعين الذين قابلوها بجملة صغيرة فى عدد كلماتها خطيرة فى مدلولها فكانت أبلغ

تعبير عن سر هذه الحركة وحقيقة دوافعها ومراميها التوسعية الأستعمارية وهى "هذه هى إرادة الله Deus Lo Vult " (١٠).

وقد حرص ذلك المؤرخ الرائد على عدم الوقوع فى أسر نظرية دور الفرد فى صنع التاريخ دون أن يكون للمعاصرين دورهم البارز هم أيضاً لذلك نجده قد أصدر عام ١٩٦٨/١٩٦٧ بحثاً عنوانه العدوان الصليبى والرأى العام الغربى، وفيه ما يفيد بأن الرأى العام فى ذلك العصر كان مؤيدا لتلك الحروب وأن نجاح البابوية فى الدعوة لها لم يكن هو سبب نجاحها الوحيد، بل هناك التوجه العام للمعاصرين أيضاً الذى دعمها بقوة.

يُعد أ.. جوزيف نسيم يوسف أول من كتب الرأى العام Public Opinion ودوره فى الحركة الصليبية، مما دل على ريادته فى المجال المذكور،فإذا علمنا أنه نشر بحثه عام ١٩٦٨/١٩٦٧م أى منذ قرابة النصف قرن؛ تأكد لنا بالفعل أمر هذه الريادة المؤكدة !!

من الملاحظ أن مؤرخنا تأثر بالعصر الذى عاش فيه حيث كان هناك المد القومى جارفا، لذلك جعل عنوان كتابه.. العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى " وكذلك كتابه الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى.

ذلك يشبه أ.. سعيد عبد الفتاح عاشور عندما جعل عنوان كتابه الحركة الصليبية صفحة مشرفة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى.

كذلك نجده يستعين بما ألفه رئيس مصر الخالد / جمال عبد الناصر فى صورة فلسفة الثورة والخطب التى ألقاها خلال الأعوام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٩ وأيضا مشروع الميثاق الوطنى الذى صدر فى ٢١ مايو ١٩٦٢م. كما أفاد من كتاب أيديولوجية القومية العربية لإبراهيم جمعة الصادر بالقاهرة عام ١٩٦٠م، وساطع الحصرى فى كتابه محاضرات فى نشوء الفكرة القومية الصادر ببيروت عام ١٩٥٩م.

ومع إدراكى لمبررات وظروف ذلك التوجه المذكور إلا أن الأصوب القول "المسلمين" وليس العرب، لأن العرب لم يكونوا العنصر الرئيسى فى الصراع مع الصليبيين، بل أن القيادات البارزة التى واجهتهم كانوا من الأتراك أو الأكراد أو المماليك.

ولا يفهم من هذه الكلمات أى تهميش لهم، بل أن الواقع التاريخى هو الذى فرض نفسه على أحداث ذلك الصراع العنيف بين الشرق والغرب على أرض بلاد الشام ومصر وشمالى العراق.

جدير بالذكر إتجه المؤرخ البارز أ.د سعيد عبد الفتاح عاشور إلى تعديل عنوان كتابه. فبعد أن كانت الحركة الصليبية، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، جعله صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى. وهو ما نلحظه فى طبعة القاهرة عام ٢٠٠٩م إلا أن مؤرخنا أ.د. جوزيف نسيم لم يعدل عنوان كتابه كما فعل زميله بجامعة القاهرة.

من ناحية أخرى نجد أن مؤرخنا يكن تقديراً خاصاً لصلاح الدين الأيوبى. ولذلك خصص عنه بحثاً مستقلاً بذاته عنوانه معركة حطين خليفاتها ودلالاتها نشره فى مجلة عالم الفكر (٢٠) العدد الأول، أبريل، مايو، يونيو ١٩٨٩ مما دل على إدراكه التام لأهمية ومحورية تلك المعركة الفاصلة فى تاريخ الصراع الإسلامى – الصليبى فى ذلك العصر خاصة أنه نتج عنها تدمير الجيش الصليبى وإسقاط المدن الساحلية وكذلك إقلاع الصليبيين وفتح بيت المقدس بعد أن ظلت فى الأسر الصليبى على مدى الأعوام ١٠٩٩ إلى ١١٨٧م.

ولا أدل على تقديره لذلك السلطان المجاهد من قوله : " البطل صلاح الدين الأيوبى الذى تمكن من تكتيل القوى العربية فى الشرق تحت راية واحدة هى راية العروبة وإعلان الجهاد المقدس من قلبى مصر ضد العدو الرابض فى فلسطين. وتفلح القوة العربية الذاتية الموحدة من إلحاق شر أنواع الهزائم بالغربيين بعد فترة من

المناورات والإستطلاع وجس النبض فى موقعة حطين الشهيرة فى يوليو سنة ١١٨٧ك ومن طردهم من البيت المقدس فى أكتوبر من نفس العام(١١).

هكذا، توافقت رؤيته مع عدد من المؤرخين المصريين الأقباط الذى نال صلاح الدين تقديرهم مثل أ.د.إسحاق عبيد و أ.د نجيب اسكندر ود. عاطف مرقص وغيرهم.

بصفة عامة يذكر له تاريخ الكتابة التاريخية العربية عن الحروب الصليبين، أنه المؤرخ الذى درس مفصلا الدور الصليبى للملك الفرنسى لويس التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠م) فى مصر وكذلك فى بلاد الشام، واستطاع تقديم دراستين مفصلتين فى هذا المجال تنافس بجدارة الدراسات الغربية عنه بالفرنسية والإنجليزية دونما أدنى مبالغة، وقد أفاده فى هذا الأمر، إجادته للغتين المذكورتين وكذلك إحاطته الشاملة والعميقة بالمصادر التاريخية العربية على نحو ضمن له النجاح فى إعداد الدراستين والآن عندما نطالعهما كأنهما صدرا عام ٢٠١٥م !!، وهذا ديل على أن العمل العلمى الجاد يتحدى الزمن بفضل أصالته وأصالة صاحبه!!

ومما يذكر لذلك المؤرخ إهتمامه بدراسة كنوز دير سانت كاترين فى سيناء وفيها مخطوطات مهمة من العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية. وبالتالى أفاد الباحثين فى التعامل مع المقطوعات القيمة الموجودة فى الدير المذكور.

تجدر الإشارة إلى تأثر أ. جوزيف نسيم يوسف بأستاذه المؤرخ السكندرى البارز أ.د عزيز سوريال عطية [١٢] الذى ألف العديد من المؤلفات بالإنجليزية. أثبت خلالها أستمرارية الحروب الصليبية فيما بعد عام ١٢٩١م وهو عام استيلاء المماليك على مدينة عكا الصليبية آخر أملاك الصليبيين فى بلاد الشام.

مع ذلك فإن تأثره بأستاذه لم يمنعه من توافى شخصية علمية مستقلة ميزته. ولذلك أحتل مكانة لائقة به بين المؤرخين المصريين الرواد لتاريخ الحروب الصليبية.

وإذا كان عزيز سوريال عطية قد فضل الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث جعل من جامعة يوتا مركزا بحثيا لدراسات العصور الوسطى، فإن تلميذه فضل البقاء فى مصر وتحديداً بالإسكندرية مواصلا رسالته العلمية، وإذا كان ذلك الأستاذ حرص على التأليف بالإنجليزية فإن مؤرخنا حرص على أن تكون مؤلفاته البارزة تكتب بالعربية، على نحو دل تماماً على اختلافه عنه.

تبقى هنا زاوية على جانب كبير من الأهمية، إذا أدرك مؤرخنا منذ وقت مبكر الارتباط الوثيق بين تجربة الحروب الصليبية واحتلال الصليبيين الغزاة لفلسطين فى العصور الوسطى، واحتلال الصهاينة لها عام ١٩٤٨م إلى يومنا هذا وفى ذلك قرر ما نصه : " إن المأساة البشرية التى مارسها الإستعمار فى فلسطين بإقامة إسرائيل هناك فى هذا القرن العشرين وإنما تمثل إمتداداً طبيعياً للعدوان الصليبى، ولعله لا يختلف عنه إلا فى الأسلوب الذى يتفق والأوضاع العالية الجديدة والتيارات المتصارعة فيها، ولقد أثبت الواقع والتاريخ. كما أثبتت الأحداث التى كان مسرحها العالم العربى منذ القدم حتى يومنا هذا أن كلاً من الحركتين : الحركة الصليبية والحركة الصهيونية فى فلسطين، إنما تمثل حلقة من حلقات الإستعمار الذى تعرضت له المنطقة العربية على مر العصور (١٣).

وتدل هذه الفكرة العميقة على إدراكه اليقيني لارتباط التجربتين الإستعماريتين معا ولا نغفل أنه كتب هذه السطور فى نوفمبر ١٩٦٧م بعد وقوع عدوان يونيو من العام المذكور، مما دل على أن مؤرخنا كان معاصرا لأحداث عصره الكبرى. وكان يستلهم التاريخ فى العصور الوسطى كى يكون زاداً لمعاصريه لمقاومة الغزاة الصهاينة.

أخيراً علينا الإقرار بأن مؤرخنا نجح بالفعل فى عمل مدرسة من المؤرخين بجامعة الإسكندرية، ومن تلاميذه أ.د مصطفى الكنانى ود. مرفت سعيد، أ. حسين عطية، أ.د حسن عبد الوهاب، ود. سامية عامر وغيرهم كثيرون على نحو جعل من

الجامعة المذكورة مركزاً بحثياً لتاريخ الحروب الصليبية وواصل تلاميذه رسالته من خلال إصدارهم مؤلفاتهم العلمية القيمة على نحو أثرى الكتابة التاريخية الحديثة عن مرحلة الحروب الصليبية.

أما منهجية فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية فيمكن إجمال ملامحها على النحو التالى :

أولاً : التوثيق المصدرى والحرص الشديد عليه وهو أمر نجده فى كافة مؤلفاته وجاء ذلك معبراً عن إهتمامه الأصلى بالوثائق، وكان قد خصص أحدى بحوثه عن علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية من خلال الوثائق التى أوردها القلقشندى فى كتابه صبح الألسن فى صناعة الإنشاء.

ثانياً : الإهتمام بالتحديد الجغرافى وهو أمر وجدناه فى العديد من أعماله العالمية، إذ حرص على تحديد المواقع الجغرافية من خلال المصادر الجغرافية العربية وكذلك المعاجم الحديثة على نحو دل على إدراكه لكون الجغرافيا توجه التاريخ وأن التاريخ ذاته ما هو إلا الصراع على الجغرافيا فى العديد من الجوانبه.

ثالثاً : الإتجاه نحو تكوين رؤية خاصة تجاه الحروب الصليبية وعدم إتباع رؤية المؤرخين الغربيين. وبالتالى عبرت كتاباته عن هوية قومية عربية ميزة وأكد لنا نجاحه فى عدم الأخذ بكل ما ورد لدى أولئك المؤرخين خاصة الفرنسيين الذين تعاملوا مع الملك لويس التاسع على أنه قديس كما عبروا عن تعصبهم القومى لتاريخ فرنسا فى العصور الوسطى.

رابعاً : الحرص الشديد على التحديد الزمنى الدقيق، وهو أمر نلحظه من خلال وضعه التاريخ الميلادى ومقابله الهجرى، وفى دراسته عن العدوان الصليبى على مصر هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور نجده يخصص ملحقا

بعنوان : جدول تواريخ الحملة (١٤) حيث حدد أحداث الحملة المذكورة يوماً وشهراً وعاماً بمنتهى الدقة.

خامساً : الإستشهاد بآيات قرآنية عندما يحتاج عرضه التاريخى لذلك، وهو أمر دل بجلاء على تسامحه وإبتعاده عن التعصب، ومما يذكر عنه أن الغالبية العظمى من تلاميذه كانوا من المسلمين وأشادوا بذلك الناحية فى شخصيته وكتابته التاريخية.

خلاصة القول: يعد أ.. جوزيف نسيم يوسف مؤرخا رائداً لتاريخ الحروب الصليبية وبالتالى يحتل مكانة بارزة بين المؤرخين المصريين الرواد.

الهوامش

(١) عن جوزيف نسيم يوسف أنظر :

محمد مؤنس عوضن رواد تاريخ العصور الوسطى فى مصر، سلسلة تاريخ المصريين، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص ١٩٤ -٢٠٣

(٢) جوزيف نسيم يوسف، الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية، فمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. الإسكندرية ١٩٨٣م، ص ٧

(٣) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ط. بيروت ١٩٨١م

(٤) محمد مؤنس عوض، رواد تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٦٥-٢٧٧

(٥) نفس المرجع، ص ١ – ٣٦

(٦) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، مقدمة الطبعة الأولى، ص ٩

(٧) عن بطرس الناسك أنظر :

William of Tyre, A History of deeds done beyond the sear trans
E.A. Babcock and Krey, Vol. I, New York 1943, P.166, P.282 J. Flori, Pierre L'ermite et la premiere Croisade, pari, 1999. H. Hagenmeyer, Peter der Eremite, Leipzig 1879

محمد مؤنس عوض، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية فى الشرق الأوسط والغرب (القرنان ١٢، ١٣م) ط القاهرة ٢٠١٥م، ص ٥٤٥ – ٥٤٧

(٨) جوزيف نسيم يوسف، الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية، ص ٢١-٢٢

(٩) المرجع السابق، ص ٢٣

(١٠) المرجع السابق، ص ٣٠

(١١) المرجع السابق، ص ٤٢

(١٢) عنه انظر : محمد مؤنس عوضن رواد تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٤٤

P.E. Walker, Aziz S.A Tiya:
A Biography, in Medieral and Middle studies in Honor of Aziz Suryal Atiya, ed A Hanna, Leiden 1972, PP 5-8

(١٣) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصيلية الأولى، ط. بيروت ١٩٨١م مقدمة الطبعة الثانية ص (د) نفسه، الصهيونية فى فلسطين امتداد طبيعى للإستعمار الصليبى، مجلة العهد الجديد العدد (١١٤٥) مايو ١٩٦٧م

(١٤) جوزيف نسيم يوسف. العرب والروم واللاتينن ص ٣١٧-٣٣٢